الفصل الأول

حياته وصفاته

obeikandl.com

اسمه ونسبه:

أبو محمد عبد الله بن المقفع فارسي الأصل والمولد. وكان اسمه روزبه بن داذويه؛ ومعنى (روزبة): المبارك. وقيل اسمه: داذويه، وكنيته أبو عمر، وقيل أبو عمر، والأول أرجح؛ ولما أسلم تسمى بعبد الله؛ وتكنى بأبي محمد. وانفرد الزبيدي في (التاج) بتسميته داذوبة بن داذجشنس، وزعم أن ابن المقفع ذكره بكتابه(اليتيمة)[17]

ولادته:

لا تعرف سنة ولادته، ولم يحددها أغلب الدارسين بدقة؛ مما أدى إلى اختلافهم في شأنها قديماً وحديثاً، وكذلك اختلفوا في مكانها؛ فقيل: ولد بالعراق سنة (106هـ/724م) وقيل ولد بقرية (جور) إحدى قرى (فيروز آباد) من إيران اليوم سنة(106 أو107 هـ)[18]بينما ذهب بعض المحدثين إلى أنه ولد في (جور) على الأغلب في عشر التسعين من القرن الهجري الأول.[19]

وبنى صاحب هذا الرأي حكمه على ظنه بأن ابن المقفع عمل لدواوين عمر بن

(17) انظر الوزراء والكتاب 103 و 109 والفهرست 172 والقاموس المحيط والتاج (قفع) وخزانة الأدب 3/ 459– 460 ووفيات الأعيان 2 / 151 ولسان الميزان 366/3 والإعلام 4/ 140 وتاريخ الأدب العربي (بروكلمان) 92/2 و(فروخ) 51/2، وضحى الإسلام 195/1 وتاريخ آداب اللغة العربية 438/1 – 439 والفن ومذاهبه في النثر العربي 134 والعصر العباسي الأول 510 وأمراء البيان 86 وابن المقفع 40 – 41.

(18) المصدر السابق نفسه.

(19) انظر أمراء البيان 86- 87 وأخذه كما يبدو لنا من الوزراء والكتاب 109.

obeikandi.com

هبيرة؛ ولذا فإن عمره يقارب الستين سنة؛ وهذا يتفق مع ما أنتجه من آثار؛ إذ لا يعقل لديه أن شاباً صغيراً أنتج هذه الآثار العظيمة...[20]

والرأي الراجح لدينا أنه لم يعمل لعمر بن هبيرة، والي يزيد بن عبد الملك على فارس وكان هشام بن عبد الملك عزله سنة(105هـ) وإنما عمل لابنه يزيد والي مروان بن محمد (آخر خلفاء بني أمية)في ولايته على كرمان سنة (128هـ) ثم كتب لأخيه داود بن عمر بن هبيرة بعد وفاة يزيد أخيه، علماً أن والد ابن المقفع لم يستوطن العراق زمن الحجاج وإنما استعمله الحجاج على بعض دواوين فارس.[21]

ولهذا كله فإن ولادة عبد الله كانت في قرية (جور) سنة (106هـ 724م) لأنه قتل سنة (142هـ/ 759م) بعد أن ((عاش ستاً وثلاثين سنة))كما قال ابن خلكان، والجاحظ[22].

أسرته:

لا يعرف شيء عن أسرته عدا أبيه وابنه محمد؛ فأبوه يسمى (داذويه) وقيل: اسمه داذجشنس؛ وقيل: المبارك. والمقفع (بتشديد الفاء وفتحها) على وزن اسم المفعول، لقب له لأنه كان قد ولي دواوين للخراج في إمارة والي -العراق وفارس - الحجّاج بن يوسف الثقفي؛ فسرق مالاً؛ فضرب ضرباً مبرحاً تقفعت

(20) انظر الفن ومذهبه في النثر العربي 134.
(21)انظر تاريخ الطبري 7/ 500 والوزراء والكتاب 109 والبداية والنهاية 10/ 96 وتاريخ الأدب العربي(بروكلمان) 3/92- 93 وضحى الإسلام 1/195- 196 وانظر شذرات الذهب 1/50 وتاريخ الحكماء 220.
(22) وفيات الأعيان 2/ 153 وانظر فيه 152 والبخلاء 368 وتاريخ آداب اللغة العربية 1/ 438 وانظر حاشية 93– 96 مما يأتي.

obeikandl.com

يداه منه؛ أي تشنجت؛ فلقب (المقفع).

ولسنا نميل إلى الرأي القائل: إنه لقب (المقفع) على وزن اسم الفاعل؛ بتشديد الفاء وكسرها - لأنه كان يشتغل بالقفاع؛ جمع (القفعة)، وهي مثل القفة، وجمعها القفاف؛ أو هي مثل الزنابيل، ومفردها الزبيل، والزنبيل؛...ولكن القفعة بغير عروة.[23]

والراجح أن أباه لم يسلم؛ وبقي مجوسياً مانوياً، ولكنه عني بتأديب ابنه كما عني بتعليمه العربية.[24] أما ابنه محمد فقد ورث مهنة ابيه في الكتابة والتأليف؛ ولذا اختلط العديد من المؤلفات بينه وبين أبيه، وليس بصحيح أن اسمه أحمد[25].

نشأته:

كانت جور القرية الهادئة الجميلة التي ينسب إليها الورد الجوري؛ لشهرتها فيه؛ مسقط رأس عبدالله بن المقفع؛ نشأ في أحضان ربوعها الغناء، وترعرع في كنف أسرة تعتنق المجوسية الموروثة؛ ورأى كل يوم أقرباءه وجيرانه يتعبدون على مذهب (ماني)؛ فألف ذلك بالاعتياد، فاتبع مذهب ماني بن يزيد، هو الآخر. ولما وجد أبوه فيه علامات الذكاء والنجابة، ورهافة الحس، ولطافة الذوق ورغبة شديدة في الأقبال على المعرفة حرص على تعليمه صنعة الكتابة التي كان يتقنها ويعمل بها... ثم دفعه إلى الازدياد من الثقافة، وحفزه على تعلم

(23) انظر وفيات الإعلان 2/ 155 والفهرست 172 وخزانة الأدب 3/ 460 والقاموس المحيط والتاج (قفع) ومن حديث الشعر والنثر 46 وابن المقفع 42، وأمراء البيان 86.
(24) انظر البيان والتبين 1/ 255- وعنه أخذ شوقي ضيف في الفن ومذاهبه في النثر العربي 134.
(25) انظر مثلاً: وفيات الأعيان 2 152 وبعد، وما رآه بروكلمان في تاريخ الأدب العربي 98/3.

obeikandl.com

العربية وإتقانها كالفارسية تماماً لأنها لغة الدولة ودواوينها وهي وسيلة الكاتب الناجح إلى الحياة.

من هنا بدأ ابن المقفع مشواره؛ بدأ في سن مبكرة، وعيناه لا تريان ألا المعرفة؛ وعقله لا يعشق إلا العلم والثقافة... فقد تفتحت مواهبه ومشاعره وأفكاره على احترام القدماء وربما تقديسهم... والإذعان لذوي الجاه والسلطان... ومن ثم تعمقت خبرته بالحياة العامة والخاصة حين دخل أول شبابه إلى دواوين الولاة في فارس، وعمل لدواوين بعض الولاة مثل يزيد بن عمر بن هبيرة في كرمان (128هـ) ولأخيه داود؛ والي البصرة حتى سنة (132هـ).ويبدو أنه حين كان يعمل لدواوين (داود) التقى بعبد الحميد الكاتب وانعقدت بينهما صداقة عظيمة؛ فقيل: وجد عبد الحميد في بيته فأخذ فقتل(132هـ).

وهذا لا يعني أنه استقر بمكان واحد لأنه عمل لوالي نيسابور (المسبح بن الحواري الخويلدي) ثم لواليها سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب الذي سيكون له شأن كبير معه، ونظن أن عمله لهما كان بعد عمله لداود ويبدو أن الحال لم تستقر به؛ ولهذا كاتب عيسى بن علي سنة (132هـ) ثم انتقل إليه في الأهواز.

هكذا كانت الأحداث الجسام في حياة ابن المقفع مع تحول الدولة السياسي والفكري من بني أمية إلى بني العباس ذات أثر كبير في نمو شخصيته... فما يشاهده من أحداث مرعبة، وفتن كقطع الليل البهيم، وهو على مقربة من مصادرها جعله شديد الحساسية والحذر من الوقوع فيها، فلجأ إلى التاريخ ليرى فيه راحته، ويعوض فيه عما يعاني من مرارة النفس، فاتصل بآثاره وترجم

obeikandl.com

منها ما تيسر له، ولكنه فقد كله.

وحينما انتقل إلى عيسى بن علي ووجد لديه السكينة وراحة البال؛ ولمس منه العقل والحلم والمروءة؛ ولم يكرهه على الإسلام أسلم - كما سيتضح لنا بعد قليل - وحين انتقل إلى أخيه سليمان في البصرة لم تنقطع صلته بعيسى... وأخلص لهما معاً، وأقام بها بصحبتهما حتى مصرعه، علماً أن سليمان ولي البصرة سنة (133هـ) وظل فيها حتى عزله المنصور (139هـ/ 756م).

وهنا يتساءل المرء: ألم يفكر أن يصبح كاتباً للخليفة؟ بلى، فقد ثبت لدينا من أخباره، ومما كتبه في رسالة الصحابة أنه ذهب في وفد من فضلاء البصرة إلى دار الخلافة في الأنبار فمنعته بطانة أبي العباس، ورجع الوفد كله[26].أن هذه الحادثة قد تركت آثرها في نفسه.

واستقر الحال لابن المقفع في البصرة وكان مولى لآل الأهتم من بني تميم، وهم من أرباب الفصاحة؛ كما اتصل بأبي الجاموس ثور ابن يزيد الأعرابي المعدود من كبار العربية، ومنه شرب البلاغة وفصح لسانه، وأتقن أساليب اللغة؛ وكان ثور يفد على آل سليمان ابن علي[27] وإذا كان ابن المقفع - هو الآخر - لم ينقطع عن آل سليمان وتلقى منهم معارف جمة فأنه لم ينقطع عن مجالس العلماء في البصرة التي كانت موئل العلم والأدب والمعرفة... وكان أبوه يحثه على طلب المعرفة، وكان يستقدم علماء اللغة إلى بيته، وبهذا كله لزم البصرة وإن تردد على بعض بلاد العراق، ولم يفارقها لا إلى بلاد الترك ولا إلى

(26) انظر جمهرة رسائل العرب 3/ 42 وما سيقال في التكلم على الرسالة من بعد.
(27) انظر تاريخ الطبري 7/ 470- 504 (أحداث سنوات 132- 142 هـ) والكامل في التاريخ 5/ 497 والبيان والتبيين 1/ 115- 117 و2/ 211 وتاريخ آداب اللغة العربية 1/ 403 وتاريخ الأدب العربي (فروخ) 2/ 52.

obeikandl.com

غيرها[28].

إن القراءة الواعية لحياته ونشأته تؤكد أن ابن المقفع بادر إلى الاتصال برجال الدولة في العهد الأموي والعصر العباسي منذ يفاعته ليعمل في صناعة الكتابة التي عمل بها أبوه من قبل، وكان أبوه يحثه على ذلك إلى أن أتيح له المجال للعمل في دواوين يزيد بن عمر بن هبيرة في كرمان ثم نيسابور قبل انتقاله إلى العراق في عهد أخيه داود، وفيه التقى عبد الحميد الكاتب. ولا شك في أن ابن المقفع كان شديد التطلع إلى أن يصبح كاتباً معروفاً، وأن تحقيق هذا الهدف يبدأ من دواوين الولاة والأمراء ومن ثم الخلفاء، ولكنه كان في الوقت نفسه يتوجس الخيفة والحذر من الاتصال بالسلطان؛ لأنه شاهد بأم عينه - وهو ما يزال في مقتبل العمر - الفتن الكبرى التي أخذت تعصف بالدولة الإسلامية. فهناك غير والٍ يخلع أو يحبس، أو يقتل؛ ثم يأتي آخر و يرحل، وهكذا دواليك. وها هي دولة بني أمية تنتهي ويبزغ فجر دولة جديدة لبني العباس الذين كادوا لأبناء عمومتهم من آل البيت (رضي اللّٰه عنهم) وأبعدوهم عن الخلافة. وفي ذلك كله كان ابن المقفع قريباً من صناع أحداثها وما يجري فيها من مؤامرات واغتيالات وإبعاد، ومثالها قصة صديقه عبد الحميد الكاتب. فقربه من بعض الولاة، وقصة صديقه من جعل الصورة عنده أكثر وضوحاً ودقة من غيره؛ فتنح عن الخوض في مجرياتها، وإن ألمه ما يقع فيها من رعب وخوف وتشريد وسجن وقتل... وكما يقال رب ضارة نافعة؛ فهذه الأحداث الكثيرة والمتنوعة زودته بذخيرة عظيمة لمادة مؤلفاته، كما أنضجت رؤيته السياسية

(28) انظر وفيات الأعيان 154/2.

obeikandl.com

والفكرية حين قدمت له خبرة واسعة بالسلطان وكيفية تفكيره، فضلاً عن تأثير عبد الحميد فيه.

لهذا استفزه التاريخ القديم في بلاد فارس فوجد فيه ضالته في التعبير عما يعاني منه ويقلقه على الصعيد الذاتي والاجتماعي والرسمي، وشدد على أن تكون ترجماته الأولى مرتبطة بإصلاح الفساد السياسي والاجتماعي ولهذا حصر اتصاله في عهد الدولة العباسية - وهو العهد الذي نضج فيه فكره؛ وكان عمره (27) عاماً - بأسرة عيسى بن علي ثم أخيه سليمان ومن يتصل بهما، ولم يتطلع يوماً إلى أن يصبح كاتب الخليفة أبي جعفر، .ولهذا لم يغادر البصرة إلى الكوفة إلا في مرات قليلة في عهد واليها عمارة بن حمزة (على الأرجح).

ونحن نوافق من يرى أن ابن المقفع لم يفكر لحظة واحدة في الاتصال بالخليفة لأسباب كثيرة، يمكن إبراز أعظمها هنا:

1. وجود كاتب لدى المنصور كان يدرك قيمة ابن المقفع وهو أبو أيوب المورياني. فاضطغن عليه، وسعى في الكيد له؛ والوشاية به وتشويه سيرته[29] على نحو ما.
2. اضطغان سفيان بن معاوية والي البصرة (139 - 145هـ)على ابن المقفع لأنه كان يسخر منه علناً في شكله وعلمه، بدافع ذاتي أو بدافع من عيسى بن علي وأخيه سليمان، بينما كان سفيان أثيراً عند

(29) انظر وفيات الأعيان 2/ 410 وتاريخ اليعقوبي 2/ 389 ومعجم الأدباء 15/ 242 و 251- 253 (ترجمة عمارة بن حمزة)

obeikandl.com

الخليفة أبي جعفر، وكان يعرف حقد سفيان عليه[30].

3. سياسة الخلفاء وموقفهم منه: يبدو لنا أن إدارة شؤون الخلافة على الوجه الذي يراه ابن المقفع لم يكن ليقنعه؛ ومن ثم كره المفاسد، والمظالم التي استشرت على أيدي بطانة الخليفة أبي العباس ثم المنصور، وكان هو من شهد أخذ عبد الحميد الكاتب من بيته إلى السفاح ثم سلمه هذا إلى عبد الجبار.[31]

وتصاعدت حكاية نفوره من الفساد بترجمته لكتاب (كليلة ودمنة) نحو سنة (132هـ/ 750م)[32] وكان هدفه من وراء هذا الكتاب كشف ما يدور في أروقة الخلافة والولايات؛ والسعي إلى إصلاحه، ثم جاءت مؤلفاته الأخرى (الأدب الصغير والأدب الكبير، ورسالة الصحابة)؛ لتعزز هذا الاتجاه لديه، وجميعها تجعل من السلطان مادة غنية للمناقشة والحوار.

يبدو أن الخلفاء قد أدركوا الرموز التي تنطوي عليها رسائله؛ وكذلك البطانة التي تعمل عندهم؛ هذه البطانة التي منعته مع وفد البصرة من الدخول إلى أبي العباس؛ كما يذكر هو في رسالة الصحابة[33] فمنعوه من دخول مركز الخلافة وهم مازالوا يحسنون الظن فيه، لأنه يعمل عند عمومتهم؛ عند آل

(30) انظر تاريخ الطبري 7/ 470- 471 وكتاب الصناعتين 64 و266 ووفيات الأعيان 2/152- 153 وسرح العيون 149 ومحاضرات الأدباء 1/ 29 وأمراء البيان 86- 87 وقد ذهب صاعد الأندلسي في (طبقات الأمم) إلى اتصاله بالمنصور (77 وبعد)
= وعنه أخذ في الأعلام 4/ 140 وتاريخ الأدب العربي (فروخ)- 2/ 52. وانظر حاشية(20) مما يأتي ونصيحة الملوك 549 حاشية (1).
([31]) انظر الوزراء والكتاب 79 وبعد ووفيات الأعيان 2/ 152 وانظر حاشية 60 مما يأتي.
(32) انظر تاريخ الأدب في إيران 444 ودراسات في الأدب المقارن 174 وتاريخ الأدب العربي (بروكلمان) 93/3.
(33) انظر جمهرة رسائل العرب 3/ 42، وحاشية 130 وما بعدها من افصل الثاني في الحديث عن رسالة الصحابة.

سليمان بن علي بن محمد بن علي...

وكذلك أيقن ابن المقفع بأن الخلفاء لا يميلون إليه، مما جعله ينغمس في شؤون ذوي نعمته، ويبتعد عن دار الخلافة، حتى كان كتاب (الأمان) الذي غدا سبباً مباشراً وقاطعاً لقطع رأسه على وجود الأسباب الأخرى.

وبهذا لم يكن ابتعاد ابن المقفع عن مركز الخلافة لأنه فارسي النزعة؛ أما قتل أبي مسلم الخرساني فهو لسبب سياسي وشخصي عند أبي جعفر المنصور؛ وطالما حرض أخاه أبا العباس على قتله؛ ولم يفعل وإن هم به ذات مرة. ولما تسنم المنصور الخلافة قتله برومية المدائن سنة (137هـ)[34] وليس كما ذهب إليه بعض المحدثين[35]؛ إذ اشرك ابن المقفع مع أبي مسلم الخرساني في العداوة للعباسيين خاصة والعرب عامة بسبب فارسيتهما.

4. لم يذكر أحد من القدماء أن ابن المقفع اتصل بالخليفة أو صار كاتباً له. وإذا كان قد ترجم بعض الأعمال، أو وجه بعضها إلى الخليفة؛ فهذا لا يعني أنه أصبح كاتباً له... فالرجل لم ينقطع عن سليمان بن علي وأخيه عيسى؛ وهذا ما ذكره القدماء، كما ذكروا اتصاله بولاة آخرين، ولو كان كتب للمنصور أو اتصل به؛ لما غفلوا عن ذكره؛ فضلاً عن أنه حاول الاتصال بالسفاح كما قلنا ولم يفلح. ولعل هذه الحادثة رغبته عن الاتصال بالمنصور، والخبر الوحيد الذي ذكر اتصاله بالخليفة روي عن صاعد الأندلسي في طبقاته؛ ثم تبعه فيه

(34) انظر تاريخ الطبري 500/7 والتنبيه والأشراف 259 وتاريخ اليعقوبي 367/2- 368 ونصيحة الملوك 510-511 وانظر حاشية 79 من الفصل الثالث.
(35) انظر ابن المقفع 51.

obeikandl.com

بعض الباحثين بعده، كحاجي خليفة والزركلي وفروخ وغيرهم[36] ونقلوا عنه، وهو خبر لا يصمد أمام الأخبار الأخرى التي لم تشر إلى ذلك الاتصال.

وهذا كله ينقلنا إلى الحديث عن إسلامه ثم أخلاقه، ثم مصرعه.

إسلامه:

دخل ابن المقفع دواوين الدولة الأموية في ولاية يزيد بن عمر ابن هبيرة لمروان بن محمد؛ على كرمان سنة (128هـ)، ولم تزد سنه عن اثنتين وعشرين سنة، ولكنه عاصر فتناً عظيمة، ومؤامرات لا حصر لها، فالخيانة يتطاير شررها في جنبات الأرض؛ والموت يحيط بالناس من كل اتجاه، ويقعد لهم كل مرصد، ثم انتهى أمر الدولة الأموية وبزغ فجر دولة بني العباس على يد أبي العباس السفاح (عبدالله بن محمد بن علي) (132 - 136 / 750 – 756م) ولم يكن لابن المقفع إلا الصبر إلى أن جاء عيسى بن علي والياً لابن أخيه أبي العباس على الأهواز سنة (132هـ) فاتصل به وعمل كاتباً لدواوينه.

ونرى أن عيسى قد أدرك قد أدرك في طبع عبد الله بن المقفع الجد والنشاط والعفة، والذكاء والصدق؛ والإخلاص، ففيه مروءة ثقافة وعلم وعقل فقربه منه، إذ جعله مؤدباً لبعض بني أخيه إسماعيل.

وهنا نقول: أخذ نجم ابن المقفع يظهر من الأهواز، وعلى يد واليه أخذت حياته

(36) انظر طبقات الأمم 77 وكشف الظنون 3/ 213 والأعلام 4/ 140 وتاريخ آداب اللغة العربية 1/ 438 وتاريخ الأدب العربي (فروخ) 2/ 52 وتاريخ الأدب العربي (حنا الفاخوري) 449 وراجع حاشية 14 مما تقدم.

obeikandl.com

تتحول تحولاً جذرياً وسريعاً، وهو لا يزال على ديانته المجوسية، ومذهبه المانوي؛ ولم يكرهه أحد على تغيير مذهبه، ولكن عقل الرجل كان يبحث منذ وعي الحياة عن معتقد يلبي ما يدور في خلده، لقد بقي سنوات في دواوين الدولة، وهي سنوات لم تكن جدباء؛ كما يبدو لنا، ففيها ربما ترجم العديد من الآثار الفارسية؛ والآثار اليونانية التي نقلت إلى اللغة الفارسية القديمة (الفهلوية)، ونظن أن هذه الآثار ربما قوت لديه النزوع للتفتيش عن دين فيه اطمئنانه؛ علماً أنه يرى أمامه الإسلام يمد نوره في الآفاق.

لهذا كله؛ عاش حراً في اعتقاده، وهو ينظر في تعاليم الإسلام؛ ويقرأ القرآن الكريم؛ وسيرة المصطفى، ويراقب سلوك الخلص من أهل الدين، وكان في ذلك كله يتدبر شأنه؛ حتى تهيأت نفسه للإسلام. ولما أراد الله سبحانه له الخير جعله يمشي في طريق ضيقة من طرقات الأهواز، فتناهى إلى سمعه وفؤاده صوت مرتفع لصبي صغير يتلو قوله تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً، والجبال أوتاداً، وخلقناكم أزواجاً، وجعلنا نومكم سباتاً﴾ (النبأ 6/78 -9) فوقف منصتاً حتى أتم الطفل تلاوة السورة؛ فقال في نفسه: (الحق أنه ليس هذا بكلام بشر)، ثم ذهب إلى عيسى بن علي، وقال له: (قد دخل الإسلام في قلبي، وأريد أن أسلم على يدك). فأجابه عيسى: (ليكن ذلك بمحضر من القواد، ووجوه الناس؛ فإذا كان الغد فاحضر). ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم، فجلس ابن المقفع يأكل ويزمزم على عادة المجوس؛ فقال له عيسى: (أتزمزم وأنت على عزم الإسلام؟) فقال: (أكره أن أبيت على غير دين، فلما

أصبح أسلم على يده)[37] ومن ثم اختص به كاتباً؛ ثم آثر به أخاه سليمان في البصرة نحو سنة (135هـ)[38].

هذه هي قصة إسلام الرجل التي توحي أحداثها بصدق إخلاص الرجل لمعتقده، ولم تكن زمزمته موحية بالزندقة والنفاق كما ذهب إليه بعض الباحثين، وإنما دليل صدق الموقف.

ولعل كل من يقرأ سيرة ابن المقفع وما بثه من آراء يدرك أنه أخذ نفسه بالمثال الأرحب للأخلاق والأنسان النبيل؛ إذ أدبته نفسه مما رأى من تجارب الناس ونطق تقريباً بما قاله المسيح حين قيل له مرة: (من أدبك؟ قال: نفسي؛ إذا رأيت من غيري حسناً أتيته، وأن رأيت قبيحاً أبيته)[39].

ولست أعني بآرائه إلا فيما يوضح لنا صفاته التي نشأ عليها منذ صغره فإن لم يستطع بلوغ الكمال كان يأخذ بما يوصله إليه، وهو القائل: (أخذ القليل خير من ترك الجميع).

لهذا كان شديداً على نفسه، مراقباً لكل تصرف أو كلمة تخرج منه؛ فجعل عقله رقيباً يقظاً لكل ما يصدر منه، وأراد لذاته أن تكون الصورة التي لا تناقض فيها ولا تشويه، فقد آمن بأن إصلاح المجتمع يبدأ بالفرد؛ وإصلاح الفرد يبدأ بالذات، فهو أجل له وأوقر؛ ولهذا يقول: (من نصب نفسه للناس إماماً في الدين فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطعمة والرأي

(37) انظر وفيات الأعيان 2/ 151.
(38) انظر تاريخ الأدب العربي(فروخ) 51/2.
(39) وفيات الأعيان 151/2، وقوله ذلك مأخوذ من كلام المسيح (عليه السلام) وإن تغيرت بعض حروفه إذ سئل (من أدبك؟ قال: ما أدبني أحد، رأيت الجهل قبيحاً فاجتنبته) العقد الفريد442/1.

obeikandl.com

واللفظ والأخدان؛ فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم)[40].

فتعلقه بالمثل العليا لا يشك أحد في أمرها و(هي التي كانت تحمله على فعل الخير أنه خير، وتجنب الخبث لأنه خبث. وهو إذن ممكن كانوا يعبدون الفضيلة لا عبادة العبيد، ولكن عبادة الأحرار).(وكان يصدر في كل أفعاله عن فكرة هي من خلق نفسه ونتيجة من نتائج فلسفته)...ولكن أن يكون (عقله لا دينه كائن ما كان هذا الدين - هو الذي كان يهديه إلى الطريق التي كان يسلكها في معاملة الناس ومواجهة الأشياء...ليس طمعاً في الثواب... و ليس خوفاً من انتقاد أو عقاب)[41] فهذا ما ينبغي للباحث أن ينظر فيه بإمعان، ويقلبه على وجوهه.

إن حكاية إسلام ابن المقفع تدل على رجاحة عقله؛ وعظمة تمسكه بالفضائل التي رغب فيها، وهي فضائل توافق تعاليم الإسلام ومبادئه، إذ كان مسلماً قبل أن يؤمن بالدين الحنيف.

فلما آمن به تابع ما كان عليه وازداد ضبط العقل نفسه للنفس بالإيمان السامي قوة ومضاء؛ وصار يملك حافزاً أعظم يسيره لم يكن يعرفه من قبل، فالتقدير والإجلال في الدنيا ينتهي بموت صاحبهما؛ وهذه نظرة فلسفية وجودية لم تكن تقنع ابن المقفع لذلك كان يبحث عن الدين الذي يحقق له كمال الفضيلة؛ لأنه لم يجدها متمثلة في المانوية التي ولد عليها، ولما أسام

(40) الأدب الصغير 29.
(41) انظر ابن المقفع 59.

obeikandl.com

تحقق له ذلك، فصار يقرأ قوله تعالى:﴿يا أيها اللذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾(الصف 2/61 -3).

وبهذا ربط عمله بقوله وكان يرجو فيهما وجه الله وآخرته قبل دنياه لقوله: (أحق ما صان الرجل أمر دينه؛ المغبون من طلب الدنيا بعمل الأخرة؛ المصيبة العظمى الرزية في الدين، طوبى لمن ترك دنياه لآخرته).وهذا القول مستمد من قوله تعالى:﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنسى نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض؛ إن الله لا يحب المفسدين﴾(القصص77/28).

ونرى أن عقله ليس دينه، وإن جعله رقيباً حارساً على أفعاله؛ والذكي من يفعل هذا؛ لكن الأذكى منه من يربطه بالإيمان السليم ويقتدي بسير النبلاء والأنبياء، وهو الذي عرف صورة المصطفى بعد إسلامه وقرأ قوله تعالى:﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً﴾(الأحزاب 21/23) كما قرأ الثقافة العربية وصدر عنها؛ ولا سيما فيما عرفناه من قوله السابق: (من نصب نفسه...) إلى آخر القول، وكأني به قد صدر فيه عن أبيات أبي الأسود الدؤلي؛ ومنها[42]:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

ابدأ بنفسك وانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يقبل ما وعظت ويقتدى ... بالعلم منك وينفع التعليم

([42]) ديوان أبو الأسود الدؤلي404.

obeikandl.com

ولاريب في أنه كان مؤدباً ومعلماً لأبناء الولاة وأقربائهم وكان عقله ومروءته وشرفه يلزمه بالفضائل، ولكن أدرك أن أي عمل نبيل يكون فيه صلاح النفس والآخر إذا تجسد في إيمان صحيح؛ فهو يؤجر عند ذلك مرتين مرة في الدنيا ومرة أخرى في الآخرة؛ وهذا ما وجده في قوله تعالى:﴿من جاء بالحسنة فله خير منها؛ ومن جاء بالسيئة فلا يجزي الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾(القصص 84/28) وقوله تعالى:﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء...﴾(الكهف 9/18) وقوله تعالى:﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾(الأسراء 7/17) وقوله:﴿للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾(آل عمران 3/ 172).

إنه بحث عن الدين حتى هيأ له الله الإيمان باستماعه إلى ذلك الصبي الصغير، فقد اجتمع العقل والذكاء والمروء .عند الرجل بتعاليم الإسلام فازداد كمالاً على كمال، وهو يقف بين ماضٍ جعل عقله رقيباً عليه، وبين حاضر كان الدين رأس فضائله حتى: لم يبقى في الإسلام من أهل فارس (شريف يذكر إلا أن يكون عبدالله بن المقفع والفضل بن سهيل) مذكوراً في جماع الأخلاق[43].

وقال محمد كرد علي فيه: (صحة الإيمان وحب الإسلام صفتان ماثلتان في ابن المقفع، مهما تقولّ عليه المتقوّلون...كان محافظاً على شعائره -وفي الوقت نفسه -لا يحرم على نفسه الطيبات المحللة؛ فليس فيه جمود الفقهاء، ولا استهتار الأدباء؛ فهم من الدين ما فهمه كل عاقل)[44].

(43) التنبيه والأشراف 76، وانظر سرح العيون 149 ومحاضرات الأدباء 1/ 29 و31.
(44) أمراء البيان 107 وانظر حاشية 108 و 109 من الفصل الثالث.

ومن صميم هذا الرأي نقول: إن ابن المقفع مثله مثل كثير من البشر، يملك نفساً لها نزواتها ووثباتها، فكان يجمع صفات الفضيلة، وصحة الدين ولا يمتنع من التظرف والمزاح، والاختلاط بغير الفقهاء، وربما اجتمع إلى المغنين والمغنيات، ومجالس الشعر، واستفزه الطرب إلى سماع الألحان والأصوات الشجية، وبذل مالاً وفيراً في سبيل ذلك، وربما تعاطى شيئاً قليلاً من النبيذ الذي حلله آنذاك فقهاء العراق، ولكنه لم يرتكب محرماً؛ وهو القائل[45]:

سأشرب ما شربت على طعامي ثلاثاً ثم اتركه صحيحا

فلست بقارفٍ منه أثاماً ولست براكبٍ منه قبيحا

ويقول أيضاً: (على العاقل أن لا يكون راغباً إلا في إحدى ثلاث خصال: تزود لمعادٍ، أو مرمة لمعاش؛ أو لذة من غير محرم)[46] فهو يطلب المتع ما كانت حلالاً، ويمتنع عن كل ما في شبهة الحرام عقلاً وديناً فيقول: (لا عقل لمن أغفله عن آخرته ما يجده من لذة دنيا، وليس من العقل أن يحرمه حظه من الدنيا بصره بزوالها).

ويقول: (على العاقل ما لم يكن مغلوباً على نفسه ألا يشغله شغل عن أربع ساعات: ساعة يرفع فيها حاجته إلى ربه، وساعة يحاسب بها نفسه، وساعة يفضي بها إلى إخوانه؛ وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه، وينصحونه في أمره، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل. فإن هذه الساعات

(45) انظر أمراء البيان 101- 102 وـ تأمل ما ورد في وفيات الأعيان 2/ 151 وبعد، وراجع حاشية 110 من الفصل الثالث.

(46) الأدب الصغير 27 و 54 على ترتيب المقبوسات.

obeikandi.com

عون على الساعات الآخر)[47]وهذا مماثل لما ورد في الحديث المرفوع: (ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه حتى يصيب منهما جميعاً؛ فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة[48].

وعلى الرغم من أننا سنتحدث عن اتهامه بالزندقة فإننا نشير في هذا المقام إلى هذه الملذات التي يقبل عليها ابن المقفع، وهذا السلوك من طلب الدنيا يخالف كل المخالفة ما كان عليه أهل المانوية. فهم لا يأكلون اللحم، ولا يقبلون على الملذات؛ ويقمعون شهوة النفس في الاستماع إلى الألحان والطرب والغناء؛ ويزهدون في الدنيا ويتقشفون، ويواصلون صومهم ليلاً ونهاراً؛ ويطوفون في البلاد يدعون إلى دينهم، ويعظمون إبليس لأنه خلق من نار، ويحرمون دفن الموتى في الأرض.[49]

\فأين ابن المقفع من ذلك كله؟ إنه لم يعظم إبليس، وجعله عاصياً حاسداً بغيضاً متعالياً. وكذلك جاء وصفه في القرآن الكريم.[50] ومكث عند آل سليمان بن علي في البصرة؛ ولم يزهد في الدنيا، أو يواصل صومه، وكان يأكل اللحم؛ ويستمع إلى الطرب واللحن، ونرجح أنه كان يؤدي فرائض الصلاة لقوله: (فأصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب، وتجتنب الكبائر؛ وتؤدي الفريضة. فالزم ذلك لزوم من لا غناء به عنه طرفة عين، ومن

(47) الأدب الصغير 26 – 27.
(48) الجامع الصغير من حديث البشير النذير (رقم الحديث 7594) وانظر الحديث بلفظ مشابه في عيون الأخبار 327/1.
(49) انظر الآثار الباقية عن القرون الخالية 307- 308 والملل والنحل 115 وبعد وآمالي المرتضى 1/ 138 وضحى الإسلام 1/ 141 وفجر الإسلام، وفيه حديث مطول عن ديانات المجوس.
(50) انظر مثلاً قوله تعالى في ما ورد في السور الأتية (الأعراف 7 / 11- 12 والحجر 15 /27 والإسراء 17/ 61 و ص 38/ 74- 76 والرحمن 55 /15).

يعلم أنه حرمه هلك؛ ثم إن قدرت أن تجاوز ذلك إلى التفقّه في الدين والعبادة فهو أفضل وأكمل)[51].

ومن طريف ما حكي عن اجتماعه ببعض المتهمين بالزندقة مثل يحيى بن زياد وصالح بن عبد القدوس وعلي بن الخليل وبشار بن برد، وغيرهم[52]أن أصحاب بشار ذكروا تهاون بشار في أمر تأدية الصلاة، ولم يذكروا غيره فقالوا: (كنا إذا حضرت الصلاة نقوم إليها، ويقعد بشار؛ فنجعل حول ثيابه تراباً؛ لننظر: هل يصلي، فنعود؛ والتراب بحاله، ولم يقم إلى الصلاة)[53].

ويبدو أن اجتماعه هذا مع بعض المارقين من الدين والسمر معهم جعل تهمة الزندقة تلتصق به، وهو بريء منها براءة كل مؤمن هذه الأيام يعاشر أحياناً بعض أناس نزعوا عنهم صبغة الدين، ولكنهم اتصفوا بالحرية والعدالة.

ولا شيء أدل على تمسكه بدينه من قوله: (ابذل لصديقك دمك ومالك؛ ولمعرفتك رفدك ومحضرتك؛ وللعامة بشرك وتحننك، ولعدوك عدلك؛ واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد)[54].

بل إننا نراه في كثير مما ترك، فضلاً عن سلوكه يصدر عن مبادئ الدين الحنيف كما في قوله: (وعلى العاقل أن يذكر الموت في كل يوم وليلة مراراً؛ وذكراً يباشر به القلوب، ويقدع الطماع؛ فإن كثرة ذكر الموت عصمة من

(51) الأدب الكبير 69 وانظر فيه 42 – 46 و54 و 57.
(52) انظر مثلاً الأغاني 13 / 279 و أمالي المرتضى 1/ 131 و 135 – 136 و 140- 148.
(53) آمالي المرتضى 1 / 138 وراجع حاشية 107 من الفصل الثالث.
(54) الأدب الكبير 102 وعيون الأخبار 3/ 15.

obeikandl.com

الآشر، وأماناً - بأذن الله – من الهلع)[55].

فنحن لن نتوقف عند كلمة (بإذن الله) وما فيها من عمق الدلالة على صحة إسلامه؛ ولكننا نذكر أنفسنا بالمصدر الذي نهل منه كلامه؛ إنه مستمد من أحاديث المصطفى (ص)؛ كقوله في الحديث الصحيح : (أكثروا ذكر هادم اللذات الموت فإنه لم يذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسعه عليه، ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه)، وكذلك في الحديث الحسن: أكثروا ذكر هادم اللذات، فإنه لا يكون في كثير إلا قلله، ولا في كثير إلا أجزله[56]. ولا يمكن للمرء - في مثل هذا المقام - أن يتغافل عن العديد من رسائله التي جعلت المعاني القرآنية عدتها وسندها لفظاً ومعنىً[57] وهي - بلا ريب - تؤكد صحة إسلامه؛ ولو كان عقله وحده هو دينه لفعل فيها ما كان يفعله بمؤلفاته التي كتبها قبل إسلامه...أو تلك التي كتبها في بدايته؛ ومن هذه الرسائل ما جاء في كتاب تعزية أرسله إلى رجل أصيب بعزيز له: (أما بعد؛ فإن الآخرة والدنيا بيد الله؛ هو يدبرهما، ويقضي فيهما ما يشاء؛ لا رادّ لقضائه، ولا معقب لحكمه. فإن الله خلق الخلق بقدرته؛ ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة؛ لئلا يطمع أحد من خلقه في خلد الدنيا؛ ووقت لكل شيء ميقات أجلٍ؛ لا يستأخرون عنه ساعة، ولا يستقدمون. فليس أحد من خلقه إلا وهو مستيقن بالموت؛ لا يرجو أن يخلصه من ذلك أحد. نسأل الله خير المنقلب)[58].

(55) الأدب الصغير 24. يقدع: يكف أو يمنع. الأشرار: البطر وكفر النعمة. الهلع: الجزع.
(56) الجامع الصغير (حديث رقم 1396 و 1400 و 1399) تبعاً لترتيب الأحاديث في الكلام.
(57) انظر جمهرة رسائل العرب 3/ 53 وبعد.
(58) جمهرة رسائل العرب 3/ 57.

obeikandi.com

لو أراد أي منا أن يعيد هذا الكلام إلى مصدره الإلهي[59] لما عجز؛ ويمكن له أن يعرض كلامه كله على آيات الذكر الحكيم، في أي معجم من المعاجم المفهرسة لألفاظ القرآن.

وبناء على ذلك كله فإننا نعتقد مع من يعتقد بصحة إسلامه؛ وصدقه فيه، وإن لم تكن منزلته في فقه الدين بمنزلة فقهاء الإسلام؛ لأنه لم يعش على الإسلام إلا تسع سنوات، وفي هذه السنوات جهد أن يجمع بين خيري الدنيا والآخرة؛ فاتصف بشيء من الإقبال على الدنيا من دون أن يرتكب محرماً؛ فاتهم برقة الدين. ولما اجتمع ببعض الأدباء والمستهترين؛ وكان له من الآثار المترجمة ما كان اتهم بالزندقة؛ ولما دخل دواوين الولاة وصم بأن إسلامه كان لغرض دنيوي ولم ينزع عصبيته عن مذهبه المانوي القديم، ولا تعصبه لفارسيته عند من زعم ذلك[60].

وختام الأمر - هنا نقول: إقدام ابن المقفع على ترجمة الآثار القديمة الهندية والفارسية واليونانية من لغته الفهلوية في أول شبابه لأنه آمن بأن الشجرة الطيبة هي التي تطرح ثمرها للناس؛ وحين أخذ نفسه بالخلق النبيل السامي التزم بعد إسلامه بتعاليم الدين الحنيف، ودل كل ما تركه على عقل ناضج؛ وحكمة بالغة؛ ولم يخرج فيه عن مبادئ الإسلام.

أما أعداؤه؛ وحساده في عصره فقد رموه بالزندقة؛ ثم تعاورت أقلام الدارسين

(59) انظر مثلاً سورة (الأنعام 2/6 والأعراف 7/ 34 و 125 ويونس 10 / 3 و31 و49 وهود 11/ 104 والرعد 2/13 و41 والنحل 16/ 61 و الأنبياء 21 / 40 و104 والمؤمنون 43/23 والشعراء 26/ 50 وسبأ 34/ 30).

(60) انظر مثلاً: وفيات الأعيان 2 / 152 وأمالي المرتضى 1/ 136 وفجر الإسلام 128 وضحى الإسلام 1/ 138 و151 – 155 و 158 ولبن المقفع 45.

obeikandl.com

بعده على نقل هذا الاتهام فضلاً عن القراءات الخاطئة لآثاره وأقواله فارتبطت التهمة به؛ حتى ما انفك أحد يتحدث عنها، وكأنه ما حفظ عنه غيرها؛ وما أسهل أن يرمي إنسان إنساناً بهذه التهمة ليتخلص منه في ذلك الزمان، ولذا نصيح: ما أكثر الزنادقة اليوم؛ إذا قيسوا بذلك المقياس.

وبناء على ما سبق لابد من الحديث عن أخلاقه وصفاته؛ وهي تقوي الميل إلى عدم زندقته؛ وتعزز نفيها عنه؛ وهذا ما سنركز فيه القول حين نتحدث عن زندقته في فصل لاحق، بعد أن نجلو صفاته وآثاره لتكون بين أيدينا دليلاً على براءته منها.

أخلاقه وصفاته

لعل ما تقدم بين أيدينا قد دل على جملة من أخلاق ابن المقفع وصفاته، فضلاً عما ترشدنا إليه مؤلفاته..فقد أخذ نفسه بالفضيلة والمروءة؛ ولم يخرج عن مفهوم الخلق السامي، وتعاليم الدين الحنيف إلا مرة واحدة مع سفيان ابن معاوية، إذ كان يتهكم به ويسخر من شكله وعلمه، ولا نعرف السبب وراء هذا، إلا أن يكون قد عرف عنه فرية عظيمة، ولهذا كان لا ينبس ببنت شفة؛ وهو والٍ للبصرة؛ وابن المقفع يعبث به على رؤوس الأشهاد.[61]

هذا ما نراه في سلوك ابن المقفع الفريد مع هذا الرجل، ولكنه سلوك لا يليق بالأخلاق التي اتصف بها، واجتمعت له وقل أن تجتمع في غيره.

فهو صادق صدوق مقدر للصداقة حق قدرها؛ وفي ودود، محب للناس جميعاً؛

(61) انظر القسم المتعلق بأسباب مصرعه مما يأتي حاشية 83 – 85 وانظر الفصل الثالث.

obeikandl.com

عفيف النفس طيب المعشر، مجد مثابر لا يمل، وصبور لا يقنط؛ ومتفائل مستبشر لا ييأس...شغوف بالمعرفة؛ مقدر لأهل العلم، موقر لشأنهم...كاره للجهل والكذب والغدر والخيانة، والشر والحسد، والمراءة والنفاق؛ والغش والتدليس والسرقة...ينفر من الحريص ويذم البخيل، ويهفو إلى الكريم، ويسعى إلى الإصلاح ويعمل له، فيبذل ماله ونفسه من أجل ذلك، يحب المؤمن وتزداد منزلته إذا اتسم بتلك الفضائل، ولكنه يتذمر منه ويتحسر له إن فقدها، ولما خلق الله الإنسان وكرمه جعله حراً؛ - والحر من يتحلى بالفضيلة والخلق ولو لم يكن على دين، لهذا يبجله ويعاشره -إذا وعد وفى؛ وإذا حدث صدق، وإذا أؤتمن حافظ على أمانته، يعين المحتاج ويقدم له من ماله ما يفك ضائقته، وهو القائل في الكرم: (وأعلم أنه سخاءان: سخاوة نفس الرجل بما في يديه، وسخاوته عما في أيدي الناس)[62].

ولهذا كله فلسنا نوافق بعض الباحثين الذين ذهبوا إلى أن ابن المقفع كان يتهكم بالعرب وأمرائها، فقصة ابن المقفع مع سفيان فريدة؛ بينما عشرته للعديد من الأمراء العرب تنقض ما زعموه عليه. ومن ثم جعلوا رسالة الصحابة نمطاً آخر من الطعن في قوانين العرب وأمرائها والسخرية من ولاتها[63] ثم غالى الدكتور عبد اللطيف حمزة[64] في اتهام ابن المقفع بالتهكم والسخرية من العرب جميعاً في الخبر الذي رواه ابن عبد ربه في (العقد الفريد)؛ ثم رواه أيضاً

(62) الأدب الكبير 116 وانظر البيان والتبيين 2/ 166 و 197 و 198 و 3/ 174 والمحاسن والأضداد 51.
(63) انظر الحواشي (130/ 156) من الفصل الثاني (رسالة الصحابة) وهي في جمهرة رسائل العرب 3/ 30- 48 فليس فيها شيء مما ذهب إليه الدكتور حمزة.
(64) انظر ابن المقفع 63 وانظر حاشية (61-62) من الفصل الثالث

obeikandi.com

أبو حيان التوحيدي في (الإمتاع والمؤانسة)[65] وكلاهما أورد الخبر تحت عنوان متشابه يتحدث عن (فضائل العرب) صحيح أن كثيراً من لغة رواية الخبر قد تغيرت لكنها لم تتناقض، فما ندري كيف اتفق للدكتور حمزة تفسيره له على أنه يسخر فيه من العرب!!؟ وكأنه في حبه هذا يستجهل علمين من أعلام التاريخ والأدب والفكر عند العرب، لأنه وحده القادر على قراءة ما وراء الكلمات، وقراءته - وحدها - اهتدت إلى أن ابن المقفع يسخر من العرب، أما ابن عبد ربه والتوحيدي فلم يعرفا القراءة الباطنية للخبر، إنه أمر أعجب من العجب...!! فابن المقفع حين يعرض لصفات الأجناس إنما يضع كل جنس من البشر في الموضع الذي اتصف به في التاريخ؛ ثم يوضح آثر القرآن في العرب خاصة، وما قدمه لهم من خير عميم، حين خصهم بالدين الحنيف، ونقلهم بوساطته ليصبحوا سادة الدنيا بعد أن كانوا منعزلين في باديتهم.

وبهذا كله يقف مرة أخرى بين حضارتين قديمة زائلة وجديدة ناهضة لا ينسى ما للأولى وما يمكن أن تفيده؛ ولا يتهكم من جنس الثانية أو يسخر؛ بل هو أميل إلى الثناء على هؤلاء البدو الذين لم يكونوا شيئاً مذكوراً فإذا بهم يقودون الدنيا وتنقاد لهم. وهذا لا يعني أنه متعصب للعرب - أكثر مما هو عليه الجاحظ مثلاً - كما ذهب إليه كرد علي[66]. وإنما موقفه موقف الرجل العاقل المنصف الذي يعطي ما لقيصر لقيصر، وما لله لله. وليتضح لنا ذلك كله نثبت نص الخبر بتمامه؛ فقد روى (أبو العيناء الهاشمي عن القحذمي عن شبيب بن شيبة قال: كنا وقوفاً بالمربد - وكان المربد مؤلف الأشراف -

(65) انظر الامتناع والمؤانسة 1/ 71-72.
(66) انظر أمراء البيان 97.

openkandil.com

إذ أقبل ابن المقفع فبشنا به؛ وبدأناه بالسلام؛ فرد علينا السلام؛ ثم قال لو ملتم إلى دار فيروز؛[67] وظلها الظليل، وسورها المديد، ونسيمها العجيب، فعودتم أبدانكم تمهيد الأرض، وأرحتم دوابكم من جهد الثقل، فإن الذي تطلبونه لن تفاتوه، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه. فقبلنا وملنا، فلما استقر بنا المكان قال لنا: أي الأمم أعقل؟ فنظر بعضنا إلى بعض، فقلنا : لعله أراد أصله فارس، قلنا: فارس. فقال: ليسوا بذلك؛ إنهم ملكوا كثيراً من الأرض، ووجدوا عظيماً من الملك؛ وغلبوا على كثير من الخلق، ولبث فيهم عقد الأمر، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم، ولا ابتدعوا باقي حكم بنفوسهم، قلنا: فالروم، قال أصحاب صنعة؛ قلنا: فالصين، قال: أصحاب طرفة؛ قلنا الهند، قال: أصحاب فلسفة؛ قلنا: فالسودان، قال: شر خلق الله؛ قلنا: الترك، قال: كلاب ضالة؛ قلنا: الخزر، قال: بقر سائمة؛ قلنا: فقل؛ قال: العرب.

قال(أي شبيب) فضحكنا. قال (أي ابن المقفع) أما إني ما أردت موافقتكم؛ ولكن إذا فاتني حظي من النسبة فلا يفوتني حظي من المعرفة. إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها، ولا آثار أثرت، أصحاب إبل وغنم، وسكان شعر وأدم؛ يجود أحدهم بقوته، ويتفضل بمجهوده، ويشارك في ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة، ويفعله فيصير حجة، ويحسن ما شاء فيحسن ويقبح ما شاء فيقبح، أدبتهم أنفسهم، ورفعتهم هممهم، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم، فلم يزل حباء الله فيهم وحبائهم في أنفسهم حتى رفع الله لهم الفخر؛ وبلغ بهم أشرف الذكر، ختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر، وافتتح

(67) المربد: سوق مشهورة بالبصرة منذ العهد الأموي، ونيروز: موضع آخر بالبصرة.

obeikandi.com

دينه وخلافتهم إلى الحشر، على الخير فيهم ولهم. فقال تعالى:﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾(الأعراف 7/ 128) فمن وضع حقهم خسر، ومن أنكر فضلهم خصم، ودفع الحق باللسان أكبت للجنان)[68].

ونحن نترك العنوان الذي ورد تحته الخبر عند ابن عبد ربه (اليتيمة في النسب وفضائل العرب)، كما نترك تأثر ابن المقفع بأسلوب القرآن ومعانيه؛ كقوله: (ومهما قضى الله...) فهو مستمد من آيات كثيرة كقوله تعالى:﴿وإذا قضى أمراً فإنه يقول له كن فيكون﴾(البقرة 117/2)، وكذلك نترك استشهاده بآية من القرآن الكريم ونتوقف لنتأمل قوله في الفرس والعرب، وقد دل فيه على إنصاف لافت للنظر لكل من الجنسين، فالفرس سيطروا على أراض كثيرة قبل الإسلام وأخضعوا شعوباً عديدة لسلطانهم، ولبث في ذلك زمنا يسوسون الخلق بأنظمة عملية، لكنهم لم يتركوا وراءهم آثاراً أدبية فلسفية تقارن مثلاً بفلسفة الهند التي عرفتها فارس وعرفت شيئاً منها في (كليلة ودمنة)، وإن كانت فارس معروفة بالسياسة والحك والعمارة والحياة المدنية التي نقلتها إلى غيرها من الأمم.

فهو يتحدث بوعي عن تاريخ فارس في عهد ملوكها القدامى، وأعظم ما لديها من الآثار المكتوبة تعود إلى فترة ما قبل الإسلام. ولهذا يريد ابن عبد ربه قبل التوحيدي أن يبين على لسان ابن المقفع أن الفرس لم يبنوا البناء على البناء على وجود تتابع الحضارة فيهم، أما العرب فهم لديهم أمة متبدية - ولهذا لا مراء فيه - وحظهم من الحضارة لا يكاد يرى إلا في الكلمة الأدبية وبجملة من

(68) العقد الفريد 3/ 324- 325.

obeikandi.com

القيم والعادات التي كانت بمقتضى حياتهم، ولعل أهم ما يميزهم صفاء عقولهم وحدة قريحتهم في تلك البادية المترامية الأطراف التي عززت لديهم علوا الهمة، والتمسك بالحرية، وعلى الرغم من ذلك أنتجوا حضارة؛ وهي حضارة لم تكن نتيجة اتصالهم بشعوب أخرى، ولم يكن لها مثال سابق وهذا ما يدل على أفضليتهم، ومن ثم إخلاصهم بحمل دين الإسلام؛ فانتقلوا من حال التشتت والتخلف والانعزال والضعف إلى الوحدة والتقدم والاتصال بالدنيا فصاروا سادة لها.

إننا نستشعر بذلك قدرة ابن المقفع على وعي التاريخ واستيعابه ودقة تحليله له؛ من دون أن ينكر على أحد من الناس ما له وما عليه، حكم فأنصف/ وما أقل النصفة هذه الأيام - وهو الفارسي الأصل. فحين يقر بالفضل للعرب إنما ينفي عنه الشعوبية ولا يثبتها عليه. وسيتضح لنا أن ابن المقفع أديب ألمعي مبتدع؛ وكاتب ماهر مثقف خبر الكتابة وأدواتها؛ ومترجم أدرك قيمة التاريخ ومعطياته فنقله إلى حاضره؛ وخطيب شاعر؛ وإن لم يكن له حظ كبير فيهما؛ فهو أجاب حين سئل عن عدم إكثاره من الشعر: (لأن الذي أرتضيه لا يجيئني، والذي يجيئني لا أرتضيه)[69]. كما قال: (أنا المسن أسن الحديد ولا أقطع)[70]. وهو مؤلف مبدع للأساليب مخترع للسير والمعاني؛ ومعلم مؤدب بليغ؛ عمدته العقل، ومنهجه الاستقامة، سعى إلى بلوغ الفضيلة فوصل إلى ارفع درجاتها؛ اخلص في انتمائه لأصوله وحافظ عليها؛ ومن ثم عزز الإسلام روح التطلع إلى هوية جديدة لا تنكر القديم ولكنها ليست من نوعه.

(69) البيان والتبيين 1/ 208 والخبر محرف في: محاضرات الأدباء 1/ 84 وبهجة المجالس 1/ 96.
(70) محاضرات الأدباء 1/ 93.

obeikandi.com

لقد شب وفؤاده يستفزه إلى كل معرفة؛ وروحه تسمو إلى كل خلق؛ ويتطلع إلى المستقبل بتفاؤل وثبات، لا يوهن من عزيمته حسد حاسد؛ ولا طيد والٍ؛ ولا اضطغان كبير أو صغير. ولهذا كله يقول: (من حاول الأمور احتاج فيها إلى ستٍ: العلم والتوفيق، والفرصة، والأعوان، والأدب، والاجتهاد)[71].

وقال: (لا تجد العاقل يحدث من يخاف تكذيبه؛ ولا يسأل من يخاف منعه، ولا يعد بما لا يجد إنجازه، ولا يرجو من يعنف برجائه، ولا يقدم على من يخاف العجز عنه)[72].

فالعاقل هو المؤمن الحقيقي بالخلق، ومن كان له خلق فهو ذو مروءة. ويؤكده جواب الرسول (ص) لرجل من مشاجع على سؤاله: ألست أفضل قومي؟ (فقال إن كان لك عقل فلك فضل، وإن كان لك خلق فلك مروءة، وإن كان لك تقى فلك دين)[73].

فأي رجل إن لم يكن متديناً، فليكن حراً ذا مروءة، وهذا ما نراه في مقولة لابن المقفع في بعض شروط الصديق: (إذا نظرت في حال من ترتئيه لإخائك فليكن حراً ليس بجاهل ولا كذاب ولا شرير)[74]. لهذا كان يذم الحريص الغافل، والحسود المبغض؛ ويكرههما كراهة تدل على عقلٍ واعٍ؛ وتدين قويم لقوله: (الحرص والحسد بكر الذنوب؛ وأصل المهالك. فأما الحسد أهلك

(71) الأدب الصغير 52-53.
(72) الأدب الصغير 53.
(73) عيون الأخبار 1/ 295.
(74) الأدب الكبير 109 وانظر الأخبار 2-26.

obeikandl.com

إبليس؛ وأما الحرص فأخرج آدم من الجنة)[75].

فهو يفضل الصديق بأن يكون متديناً حراُ شريفاً؛ أما إذا كان متديناً وفقد صفات المروءة فلا حاجة للإنسان به، وإن فرض على المؤمن الشريف أن يخالط بعض المستهترين احياناً ـ كما حدث له، وكما يحدث لنا في أيامنا هذه ـ فليتمسك بخلقه وعقله من دون الإساءة لهم.

فابن المقفع مثل للوفاء والإخلاص والتضحية بالنفس والمال من أجل صديقه؛ وقصته مع عبد الحميد الكاتب ـ مثلاً ـ تؤكد ذلك. فقد روي أن عبد الحميد طلب من بني العباس، فاستخفى فعثر عليه عند ابن المقفع ـ وكان صديقاً له ـ ففاجئهما الطلب، وهما في بيت، فقال الذين دخلوا عليهما: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل واحد منهما: أنا، خوفاً من أن ينال صاحبه مكروه؛ وخاف عبد الحميد من أن يسرعوا إلى ابن المقفع؛ فقال: ترفقوا بنا؛ فإن كلاً منا له علامات ففعلوا؛ وأخذ عبد الحميد)[76]

إنه قدم روحه في سبيل صديقه، آواه إليه؛ ودفع نفسه للتهمة قربانا له، ومن كانت هذه صفته فإن حاله أهون عنده ليبذله في سبيل المحتاجين إليه أصدقاء وغير ذلك.

وروى ابن قتيبة أن ابن المقفع كان له جار ركبه دين، فرغب في بيع داره إن

(75) عيون الأخبار 3/ 191-192 وانظر فيه 9/2 وبهجة المجالس 1/ 409- 410.
(76) وفيات الأعيان 231/3 وانظر فيه 229- 230 والوزراء والكتاب 79 وبعد وتاريخ الأدب العربي(بروكلمان) 1/ 161 و93/3 وضحى الإسلام 1/ 197 والفن ومذاهبه في النثر العربي 114(15)

obeikandl.com

باعها معدما، وبت واجدا، فحمل إليه ثمن الدار وقال: لا تبع[77].

وذكر الجهشياري قصة أخرى له مع عمارة بن حمزة؛ ثم قال فيه: (وكان سرياً سخياً، يطعم الطعام؛ ويتسع على كل من احتاج إليه. وكان قد أفاد من الكتابة لداود بن عمر مالاً؛ فكان يجري على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين الخمس مئة إلى الألفين في كل شهر)[78].

فالرجل يتعهد ذوي الحاجات، ويواسيهم بماله، ونفسه؛ مما يدل على سماحة خلقه؛ وهو القائل: (أهل العقل والكرم يبتغون إلى كل معروف وصله وسبيلاً)[79]. فالعقل يزيد العاقل بصراً، ويزيد الخفافيش سوء بصر، بل إن اجتماع عقل ابن المقفع مع خلق رفيع؛ ورهافة حس، يشي - دون شك - بأن حذره لم يكن تقية أو نفاقا؛ كما ادعاه عليه بعض الباحثين[80]؛ وهو القائل: (الكريم يمنح الرجل مودته عن لقية واحدة أو معرفة يوم؛ واللئيم لا يصل أحداً إلا عن رغبة أو رهبة)[81]؛ و(لا يتم حسن الكلام إلا بحسن العمل؛ كالمريض الذي قد علم دواء نفسه؛ فإذا هو لم يتداوى به لم يغنه علمه)[82] فشدة حذره من السلطان ناتج عن حلم سديد، وتجربة واعية بشؤون السياسة؛ فهو الذي كابد فتن الولاة، ورأى أحداثاً عظيمة تجري بين ظهرانيه.

ولو أعاد المرء النظر في كتاب الأمان لاستيقن بما طبع عليه من فضائل؛ فهو

(77) عيون الأخبار 1/ 339 وانظر فيه 3/ 15.
(78) الوزراء والمتاب 117 وانظر أمراء البيان 99 - 100 وابن المقفع 54- 55.
(79) الأدب الصغير 60.
(80) انظر ابن المقفع 60.
(81) الأدب الصغير 60.
(82) الأدب الصغير 63.

obeikandl.com

صادق مخلص؛ محض مودته وإخاءه لذوي نعمته؛ فكان وفياً شريفاً ولم يخذلهم حين احتاجوا إليه. لهذا وضع كل حذقه في الكتابة؛ وبلاغته بمعرفة العربية وأساليبها؛ ودل على فهم عميق بنفس أبي جعفر المنصور؛ لأنه استشعر منه البطش والغدر بعبد الله بن علي؛ فأحكم كل منفذ عليه[83] ؛ وهو يعلم أنه يضع دمه بين حروف كلماته، وهو الذي قدم نفسه - من قبل - قرباناً لصديقه عبد الحميد الكاتب.

ودل في هذا الكتاب وغيره على أنه بليغ فصيح وكاتب مبدع، يضع كلامه في الموضع الدقيق له؛ وعالم فطن لأبعاد ما يرمي إليه كلامه، حتى صار مضرب المثل ببلاغته كما نجد في شعر لأبي تمام يذكره مع غيره من البلغاء؛ في مدحه للحسن بن وهب[84]:

فكأن قساً في عكاظ يخطب وكأن ليلة الأخيلية تندب

وكثير عزة يوم بين ينسب وابن المقفع في اليتيمة يسهب

وشهد له الأصمعي اللغوي المعروف (ت 216 هـ) بفصاحته فقال: (قرأت آداب ابن المقفع فلم أرى فيها لحناً إلا قوة العلم أكثر من أن يحاط بالكل منه فاحفظوا البعض)[85]، وكان الصواب أن يقول: (كله) و (بعضه) بغير(آل) كما سعى الخليل ابن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ) إلى مجالسته له: (كيف

(83) انظر تاريخ الطبري 7/ 105 ووفيات الأعيان 2/ 152 وضحى الإسلام 1/ 195-196 وتاريخ الأدب العربي (بروكلمان) 93/3.
(84) شرح ديوان أبي تمام 1/ 81 وثمار القلوب 199- 200 وأمراء البيان 190 وابن المقفع 69.
(85) انظر وفيات الأعيان 2/ 151 و 246 وأماني المرتضى 1/ 136 وراجع حاشية (47) من الفصل الثالث.

obeikandl.com

رأيت صاحبك؟ فقال: ما شئت من علم وأدب إلا أن عقله وعلمه أكثر)[86].

وقد حرفت رواية الخبر نتيجة النسخ أو رواية الرواة فكان الجواب (ما رأيت مثله، وعلمه أكثر من عقله)[87]، وقد صدق كل منهما في وصف الآخر، ووقع بذكائه على أهم ما يتصف به.

ومن ثم قال ابن الإسلام: (سمعت مشايخنا يقولون: لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع، ولا كان من العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع)[88].

وكذلك كان مثار إعجاب كثير من القدماء والمحدثين؛ استشهدوا بآرائه[89] وأثنوا على أخلاقه وذكائه وعفته وقناعته في المأكل والملبس والمشرب، وكرمه الفياض، فكان (جواداً فارساً جميلاً) كما قال الجاحظ[90]. وقال محمد كرد علي فيه:

كان (رجل نجدة وأنفة وكرم أخلاق ومروءة ووفاء وحسن عشرة، وكان رب جد وعمل، لا يستند في أموره إلى الخيال، وجل اعتماده على عقله وتجاربه وتجارب من سلف من حكماء الأمم. كان محافظاً على شعائره، لا يحرم على نفسه الطيبات المحللة؛ فليس فيه جمود الفقهاء، ولا استهتار الأدباء، فهم من

(86) المصدر السابق.
(87) المصدر السابق.
(88) المزهر في علم اللغة 2/ 401.
(89) انظر ما قيل فيه مثلاً: العقد الفريد 1/ 11-12 و 2/ 441 و 478 و 3/ 5 و 324 ومحاضرات الأدباء 1/ 29 و31 و 60 و 76-77 و 84 و 93 و 96 وبهجة المجالس 1/ 321 و 452 و أمالي المرتضى 1/ 136- 137 ومعجم الأدباء 3/ 177 و 1/ 74- 114 و ضحى الإسلام 2/ 225.
(90) انظر أمالي المرتضى 1/ 136-137 ووفيات الأعيان 2/ 152 56.

obeikandi.com

الدين ما فهمه كل عاقل)[91].

ولهذا كله نعجب للجاحظ كيف اتهمه بالجهل بعد أن اثنى عليه، فقال: (وإذا أردت أن تعتبر ذلك إن كنت من خلص المتكلمين ومن الناظرين فاعتبر ذلك بأن تنظر في آخر رسالته الهاشمية فإنك تجده جيد الحكاية لدعوى القوم وقد يكون الرجل يحسن الصنف والصنفين من العلم، فيظن بنفسه عند ذلك أنه لا يحمل عقله على شيء إلا بعد فيه)[92]. ثم استجهله معتزليٌّ آخر هو أبو بكر الأصم، فقال: (ولقد رأيت ابن المقفع هذا في غزارة علمه وكثرة روايته كما الله تعالى:﴿كمثل الحمار يحمل أمثالاً﴾(الجمعة 62/ 5) قد أوهن علمه وأذهله حلمه، وأعمته حكمته و حيرته بصيرته)[93]. ولعل هذا الحكم يحدنا - من جديد - إلى تذكر مجالس الخليل لابن المقفع؛ إذا قال الأول في الثاني: (علمه أكثر من عقله) بينما قال الثاني في الأول: (عقله أكثر من علمه)[94]، وشتان بين الحكمتين.

وبذلك كله يتضح لنا أمران اثنان في الانتقاص من عبد الله بن المقفع وهما:

1. كان ابن المقفع يجهل علم الكلام الذي يتقنه المعتزلة، وإن أقروا له بغزارة العلم وجيد المعارف، وكثرة الرواية ولكنه في هذا العلم ليس حجة. ثم اتهم بالجهل وقلة تدبر أمره فقال البغدادي: (وجهل لبن المقفع أداه إلى أن كتب أماناً...فقتله)[95].

(91) أمراء البيان 107.
(92) أمراء البيان 94- 95.
(93) المصدر السابق.
(94) وفيات الأعيان 2/ 151.
(95) خزانة الأدب 3/ 460.

obeikandl.com

2. غلب على علمه ومؤلفاته منهج الجمع والتصنيف؛ فليس له من الفضل إلا أنه نقل ما لدى القدماء من الفرس والهنود وربما غيرهم، ولهذا ظهر علمه أكثر من عقله، فلو كان يملك - في رأيهم - العقل الراجح لسخر علمه في إنقاذ نفسه.

وفي ضوء ذلك نقول: على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك المنى؛ وإذا نقصت معارفه من علم الكلام؛ فهذا ليس بضائره، ولا يقوم به حدّ المعرفة؛ في زمانه؛ فضلاً عن أن الأنسان لا يمكنه أن يبلغ الكمال وإن نشده طوال حياته فالكمال لله وحده، والإنسان مركب على النقص؛ ومن ادعى إنه علم فقد جهل. وهو القائل: (العلم أكبر من أن يحاط بالكل فخذوا البعض) إذا أهملنا صغر سن ابن المقفع، وأن الجاحظ نفسه قدمه في (بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير وعده من المعلمين ثم من البلغاء المؤدبين)[96].

وأخيراً نرجح بأن ابن المقفع ليس مجرد جامع أو مصنف لآثار الفرس وغيرهم؛ ولكنه أخذ نفسه فيما يراه من الواقع السياسي والاجتماعي والفكري - وهو لم يكن قد أسلم - بأن يرجع إلى التاريخ، فيفيد منه ويحاور أهله ويستمع إليهم في ضروب من الأخلاق ولطائف الأمور، فترجم بعض تلك الآثار وما نقل إليها من الهندية على السواء، مما هو مكتوب باللغة الفارسية؛ وطبع ذلك بطابعه الشخصي وثقافته العربية، وساقه من أجل هدف إصلاحي ليس غير.

(96) أمراء البيان 95 وانظر البيان والتبيين 1/ 252 ومعجم الأدباء 15/ 242 وتاريخ الأدب العربي (الزيات) 203- 204 و 214

obeikandl.com

وما الذي يضير هذا الشاب وهو في مقتبل العمر أن يعمد إلى ما يعرفه من ثقافات؛ ويجعلها مركز اهتمامه، وهو ما يزال لا يعرف غيرها؟! إنه ينهل منها آراءً سياسية واجتماعية وفكرية؛ ويستشف أنظمة وقوانين يراها مفيدة لأبناء عصره؛ شأنه شأن المبدعين والمفكرين المخلصين هذه الأيام. فابن المقفع وجد نفسه أنه يقف بين حضارتين ولا يملك إلا قلمه وعقله فتوجه إلى ثقافته القديمة لينهل من معينها ما يفيد واقعه، ولكنه كان مبدعاً حين مزج ما هو قديم وما هو جديد؛ فقدم لنا المثال الحيوي على المزج الحضاري مبكراً. ثم تراه من بعد إسلامه وإتقانه للغة العربية يضع مؤلفات تدل على إبداع من نوع جديد؛ كما هو عليه (رسالة الصحابة) و(الأدب الكبير والأدب الصغير) ثم لا يحيد في منهجه عن منهج ابن الحميد الكاتب في رسالته إلى ولي العهد[97] وبهذا نرى أنه إذا كانت صناعته تحتاج إلى ذكاء فإن الكتابة تحتاج إلى ذكائين: (جمع المعاني والحروف بالقلم)[98].

مصرعه:

جاء على رأس دولة بني العباس رجلان شديدان حازمان هما أبو العباس السفاح وأخوه أبو الجعفر المنصور، فبطشا بأقرب المقربين إليهما، إن لم يرَ رأيهما، وقد عاين ابن المقفع ذلك عن كثب لأنه كان كاتباً لعيسى بن علي عم أبي العباس، كما أشرنا إليه من قبل، إذ عاش في مرحلة زمنية عصيبة من حياة الأمة الإسلامية.

(97) انظر أمراء البيان (66 وبعد) في أقسام رسالة عبد الحميد إلى ولي العهد، وما الموضوعات التي دارت عليها، وانظر الرسالة ذاتها في جمهرة رسالة العرب 2/ 406 رقم الرسالة 505.
(98) محاضرات الأدباء 1/ 97.

obeikandl.com

ولما نأى بجنبه عن كل ما يجري، ابتعد عن مركز الخلافة وأبي جعفر المنصور؛ ولكنه دخل في نهاية المطاف في أتون خلافاتهما فدفع رأسه ثمناً لذلك، ووقع المحذور الذي كان يخشى منه، فانطبقت عليه مقولة: (من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه)؛ فهو قد وقع فيه فعلاً ولم ينجه عقله ولا حذره من قدره.

بل لنقل: إنه أحد أولئك الذين قتلهم علمهم وإتقانهم للمعرفة وصنعة الكتاب؛ ومن العلم ما قتل، فابن المقفع الذي تعهده أبوه بالرعاية، وعلمه صناعة الكتابة، فتثقف الثقافة الفارسية والثقافة العربية على السواء، حتى وصل فيهما إلى درجة أقرب إلى الكمال، كان حسن صنعه في إحكام كتاب الأمان الذي كتبه لعبد الله بن علي نحو سنة (139هـ) بدافع من أخيه عيسى السبب الأعظم الذي أدى إلى مقتل ابن المقفع. وكان الذي شق على أبي جعفر ما جاء في أسفل الكتاب؛ ليوقع بخطه عليه؛ وهو: (وإن أنا نلت من عبد الله بن علي أو أحد ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير؛ أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً له؛ سراً أو علانية؛ على الوجوه والأسباب كلها، تصريحاً أو كناية؛ أو بحيلة من الحيل؛ فأنا نفي من محمد بن علي بن عبد الله ومولود لغير رشدة. وقد حل لجميع أمة محمد خلعي وحربي والبراءة مني، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة. وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي، وإعانة من ناوأني من جميع الخلق، ولا موالاة بيني وبين أحد من المسلمين، وهو متبرئ من الحلول والقوة؛ ومدعٍ إن كان أنه كافر بجميع الأديان، ولقي ربه على غير دين ولا شريعة، محرم المأكل والمشرب والمناكح والمركب والرق والملك

والملبس على الوجوه والأسباب كلها، وكتبت بخطي ولا نية لي سواه؛ ولا يقبل الله مني إلا إياه والوفاء به)[99]. هذا جزء مما ينبغي أن يوقع عليه الخليفة من كتاب الأمان؛ فهو مكتوب بلغة بالغة الدقة، وفيها كثير من الإثارة؛ فضلاً عن أنه لم يمكنه من التأويل كي يفتك بعبد الله والذي كان عمه؛ لأنه خرج عليه في الشام؛ ولم يبايعه إلا في سنة (138هـ) بعد أن فر من البلاد، ثم استطاع الدخول إلى البصرة وكان واليها للمنصور - آنئذ - عمه سليمان بن علي الذي سعى جاهداً مع أخيه عيسى لأخذ الأمان لأخيهما عبد الله. ولما وعدهما أبو جعفر بالأمان أحفظه فعلهما، واضطغن على ابن المقفع، ثم عزل سليمان سنة (139هـ - 756م). وولى مكانه سفيان بن معاوية (139 - 145هـ) ثم أمره بقتل ابن المقفع سنة (142هـ/ 759م). أما كيفية مقتله فسنوضحها بعد أن نشير إلى بعض الأسباب الأخرى التي تراكمت سنة بعد سنة حتى إذا حان قدره كتب ذلك الكتاب بأمر من عيسى بن علي.

فسبب مقتل ابن المقفع سبب سياسي شخصي يكمن وراءه ما اختزنه ابن المقفع من مهارة ومعرفة؛ فلم يترك للمنصور منفذاً ينفذ منه إلى قتل عبدالله بن علي.

لهذا حبس الخليفة عبدالله بن علي سنة (140هـ) بأمر من المنصور؛ وكان عبدالله قد أغرى بإخوته وابن المقفع، ففطن له وقتل وهدم البيت على

(99)أمراء البيان 108- 109 وانظر تاريخ الطبري 7/ 501 وخزانة الأدب 460/3؛ وكل منهما أشار إلى الكتاب بينما أثبت اليعقوبي جزءاً منه وحكى قصته: تاريخ اللغة العربية 1/ 438 وانظر ما يأتي في الفصل الثالث عن زندقته، ولا سيما الأسباب بعد حاشية 37.

obeikandl.com

صاحبه[100] كما يقول الجاحظ.

فالكتاب في اعتقادنا السبب الأول والأخير في قتل ابن المقفع أما الدواعي الأخرى فكانت بمنزلة المقدمات لمصرعه، وذلك ما ذكره البغدادي قبل قليل. وليس من أحد يشك في أن ابن المقفع نال شهرة عظيمة في التأليف والترجمة؛ ومهر بصناعة الكتابة في الدواوين وقد جرّ عليه هذا كله حسد الحاسدين وكيد الكائدين ومنهم أبو أيوب المورياني كاتب الخليفة كما عرضنا له من قبل.

أما السبب الآخر فهو حقد سفيان بن معاوية المهلبي على ابن المقفع؛ وكراهيته الشديدة له ولم تذكر الأخبار القديمة سبباً للعداوة بينهما، علماً أن أول اتصال وقع لأبن المقفع به كان يوم ولايته على نيسابور ومن بعد صار والياً للمنصور على البصرة؛ ولكنها روت أن ابن المقفع كان (يعبث بسفيان وينال من أمه، ولا يسميه إلا بابن المغتلمة، وكثر ذلك منه). واستمر يستخف به كثيراً، وكان أنف سفيان كبيراً، فكان إذا دخل عليه قال: السلام عليكما، زوجاً وزوجة؟ يسخر به على رؤوس الناس. وقال سفيان يوماً: ما ندمت على سكوت قط؛ فقال ابن المقفع: الخُرس زين لك، فكيف تندم عليه؟!!. وكان سفيان يقول: والله لأقطعنَّه إرباً إرباً، وعينه تنظر وعزم على أن يغتاله؛ فجاءه كتاب المنصور بقتله).

وكان من أمر ابن المقفع قبل مقتله أن عيسى بن علي طلب إليه أن يذهب بأمر

(100) انظر الكامل في التاريخ 5/ 496 – 497 ومروج الذهب 3/ 315 وتاريخ اليعقوبي 2/ 369 ورسائل الجاحظ 2 / 130.

obeikandl.com

أخيه عبد الله إلى سفيان فأجابه بقوله: أبعث إليه غيري؛ فإني أخاف منه. فقال اذهب فأنت في أماني)[101]. ثم ذهب فرأى عزم سفيان على قتله؛ فقال يتهكم به: (والله إنك لتقتلني فتقتل بقتلي ألف نفس، وقتل مائة مثلك ما وفوا بواحد؛ ثم أنشد شعراً[102]:

إذا ما مات مثلي مات شخص يموت بموته خلق كثير

وأنت تموت وحدك ليس يدري بموتك لا الصغير ولا الكبير

ثم أمر بتنُّور فسجِّر، ثم أمر بابن المقفع فقطعت أطرافه عضواً عضواً؛ وهو يلقيها في التنور، وهو ينظر، حتى أتى على جميع جسده؛ ثم أطبق عليه التنور، وقال: ليس علي في المثلة بك حرج لأنك زنديق وقد أفسدت الناس)[103].

هذه هي أشهر رواية لكيفية مقتله بعد أن عاش ستاً وثلاثين سنة؛ وكذلك روي أنه ألقاه في بئر المخرج وردم عليه الحجارة؛ وقيل: أدخله حماماً، وأغلق عليه بابه فاختنق) ونرى أن الرواية الأخيرة أقرب إلى المنطق والعقل ومجريات الحادثة، فمن حضر من الشهود أفادوا بأنهم رأوه يدخل دار الوالي ولم يخرج منها.[104]

وحين يتحدث المرء عن مصرع ابن المقفع لا يمكنه أن يتغافل عن سبب آخر أشرنا إليه على نحو ما فيما تقدم، وهو علم الرجل ومهارته في الكتابة. فحين نصب نفسه مدافعاً عن الرعية، وأخذ يغمز من الخليفة ويلمز بطانته، وينقد

(101) وفيات الأعيان 2/ 152 وانظر أمالي المرتضى 1/ 136 والفهرست 153 و 172.
(102) الوزراء والكتاب 103 وبعد.
(103) وفيات الأعيان 2/ 152 وانظر أماني المرتضى 1/ 136 والفهرست 153 و 172.
(104) انظر وفيات الأعيان 2/ 153 على الترتيب في الرقمين.

obeikandl.com

سياسة تدبير شؤون الحكم وتعيين الولاة؛ ويوحي بظلم الحاكم المطلق في كتابه (كليلة ودمنة) وإن لم يسمه كان هذا بداية لاضطغان أبي جعفر عليه.

ثم نصب نفسه من جديد بعد تولي أبي جعفر الخلافة سنة (136هـ) مرشداً وناصحاً يوصيه بجملة من التدابير التي تبصره بإصلاح فساد بطانته؛ وكأنه غافل عنها، مما زاد حنق الخليفة عليه.

وما زال غضب المنصور يتصاعد حتى أخرجه كتاب الأمان عن حلمه وسياسته المرنة؛ مع ابن المقفع. والسبب أن الكتاب يحمل في طياته نذير الثورة الحقيقية؛ والتمرد الصريح، فقد وقف الكتاب سداً منيعاً في وجهه فلم يستطيع أن ينال من رجل خارج عليه، ولم يبايعه إلا قهراً بعد مطاردته، وهذا ينذر بالتقليل من هيبة الخليفة؛ ويشجع الآخرين على أن يحتذوا حذوه، لهذا وجدنا المنصور يسجن عبدالله بن علي ثم يضيع دم عبدالله بن المقفع حين طلب بثأره عيسى بن علي وأخوه، ومن ثم يقتل عيسى بعد ابن المقفع في ظروف غامضة في السنة نفسها (142هـ)وهي السنة التي مات فيها سليمان أيضاً[105].

ولهذا كله لا ندري سبباً لرفض الدكتور طه حسين أن يكون كتاب الأمان مدعاة لقتل ابن المقفع حين رجح نفيه بقوله: (ويقولون: بل قتله عهد كتبه لعبد الله بن علي أحرج صدر المنصور؛ إذ ألزم الخليفة إن رجع أن تكون نساؤه طوالق؛ ورقيقه حراً؛ إلى غير ذلك. فغضب المنصور وأغرى إلى والي البصرة سفيان بقتله فقتله). ثم يقول: (أما أنا فأرجح جداً أن الذي قتل ابن المقفع ليست الزندقة، ولم يقتله تشدده في الأمان الذي كتبه لعبد الله بن علي؛ لأنه يوشك

(105) المصدر السابق.

obeikandl.com

أن يكون أسطورة ليس لدينا منها نص. ولكن لابن المقفع رسالة أخشى أن تكون هي التي قتلته؛ لأنها توشك أن تكون برنامج ثورة؛ وهي موجهة إلى المنصور...)[106]

وإذا كان قد استنكر مقتله على تلك الرواية التي قطعته إرباً إرباً فهو محق في استنكاره؛ لأننا رجحنا الرواية الأقرب للمنطق؛ وهي حبسه في الحمام حتى مات دون أن يدري به أحد، وأما أن يستنكر كتاب الأمان ويجعله أسطورة لعدم وجود نص فهذا كلام غير دقيق؛ لثبات النص و روايته عن الرجال الثقات. أما أن تكون (رسالة الصحابة) السبب الوحيد لقتله فهذا غير مسلم عندنا، وإن وصفها بأنها: توشك أن تكون برنامج ثورة. ونحن لا نستبعد قيمة ما توحي به من وجوه استفزاز الخليفة؛ إذ كانت تحمل من النقد اللاذع لنظام الحكم أكثر مما ينبغي أن يثار، ولكنها ليست سبباً في قتله لأنها كتبت نحو سنة (136هـ) بينما كُتب الأمان آخر (139هـ) وأدى في جملة ما انتهى إليه الأحداث إلى عزل سليمان بن علي عن البصرة وحقد الخليفة عليه وعلى أخيه عيسى وحبس عبد الله. وهنا نتساءل: أيعقل أن يتريث المنصور ثماني سنوات حتى ينفذ في ابن المقفع حكم القتل وهي برنامج ثورة؟!. إننا نستبعد فرضية الدكتور طه حسين؛ علماً أن ابا جعفر كان فطناً ذكياً حذراً فهو يعد من الدهاة؛ وهو أدرى الناس بضغائن الصدور من غيره؛ وهو من بطش بأعدائه على الظن، فليس من المنطق في شيء أن يقتل المنصور ابن المقفع على رسالته (رسالة الصحابة) بعد تلك المدة الطويلة من كتابتها؛ وهي التي دفعته

(106) انظر من حديث الشعر والنثر 46- 47.

obeikandl.com

إلى التفكير الجاد لإيجاد نظام واحد للقضاء والخراج، لذا فالراجح لدينا أن هذه الرسالة كانت سبباً من الأسباب التي تجمعت عند المنصور للأمر بقتله، ولا سيما ما تدل عليه عبارة ابن المقفع نفسه، ويقول فيها: (الملك يحتمل كل شيء من أصحابه إلا ثلاثاً: إفشاء السر والتعرض للحرم، والقدح في الملك)[107].

وقد يقول قائل: لماذا لا تكون الزندقة وراء مقتله، ولا سيما أن سفيان ابن معاوية قد وصمه بذلك في رواية المدائني عن كيفية مقتله؟. ومن ثم فإن بعض المحدثين كالدكتور عبد اللطيف حمزة لا يرى سبباً لقتله غير الزندقة، إذ يقول: (فعندي أن المنصور لم يتذرع بكتاب الأمان في قتل الرجل، ولكنه حين أراد قتله إنما تذرع بسبب واحد قبل كل شيء هو الزندقة أو شهرة ابن المقفع بهذه الصفة)[108]. ولما ذهب هذا المذهب جعل الخروج على السلطان والخليفة زندقة، كما يخرج الإنسان عن الدين الإسلامي، ولا سيما أن الزنادقة أصبحوا في نظر الخليفة المنصور مصدر شر عظيم له ولدولته.

ونحن لا نرتاب في أن الزنادقة شر كبير على الناس في كل زمام ومكان، ولكن أن نسلم باتهام كل من هب ودب بالزندقة على اعتبار ما نفكر فيه أو نتعصب له، فهذا أغرب من الغرابة منهجاً وعلماً و موضوعية، فالباحث سلم بزندقة ابن المقفع - وهو بريء منها كما سنرى - ثم جعله مطارداً في زمرة الزنادقة الذين طاردهم أبو جعفر المنصور، وقتل بعضهم، وهذا كله محض افتراء وتوهم وخيال غير دقيق ومناقض للواقع التاريخي، فابن المقفع كان بالقرب من الخليفة، وإذا كان الخليفة قادراً على أخذ عمه عبد الله بن علي

(107) المحاسن والأضداد، 16.
(108) ابن المقفع 230.

obeikandl.com

والي الشام لأنه ثار عليه فهو أقدر على أخذ ابن المقفع القريب منه في البصرة عند عمه سليمان بن علي، فالزندقة شر مستطير على المجتمع والدين، ولكنها لم تكن على سبب مقتله كما رآه الدكتور طه حسين وهو ما نذهب إليه، على أننا لا نرى رأيهم في تهمة الزندقة، وهذا يعود لأسباب كثيرة سنناقشها في الفصل الثالث، بيد أننا نشير هنا إلى أن الرواية الوحيدة التي ورد فيها اتهام ابن المقفع بالزندقة من أبناء معاصريه أنما هي رواية المدائني (ت 225م) على لسان سفيان ابن معاوية، وهي رواية مشكوك فيها، ومما يؤيد الشك فيها أن المنصور لم يقتل من الزنادقة إلا من اعترف على نفسه بها، وبأنه ارتكب بحق الإسلام أمراً فضيعاً، كما هو حال أبي العوجاء الذي وضع أحاديث مكذوبة على رسول الله، واعترف بذلك فقتله المنصور.(109)

فهذه هي الحالة التاريخية الوحيدة في هذا الشأن؛ إذ ام يكن المنصور يتعرض لحرية الرأي والفكر إلا إذا ارتبط بمركز الخلافة والحكم، أو جاهر بعدائه للإسلام، وأخذ يفتري عليه وعلى رسوله.

وبناء على ذلك كله نرى أن هناك أسباباً عديدة اجتمعت كلها، بعد أن تراكمت سنة إثر أخرى حتى كان (كتاب الأمان) وما لحقه من وقوف ابن المقفع مع بني علي أعمام الخليفة، مما أدى لنقمة المنصور عليه وأمره لوالي بصرة الجديد سفيان بن معاوية كي يتخلص منه، وهنا واتت الفرصة المناسبة سفيان و الذي كان يضطغن عليه كثيراً فقتله شر قتلة كما ذهبت إليه الروايات العديدة، ما عدا رواية وحيدة ذهبت إلى أن ابن المقفع قتل نفسه،ثم

(109) انظر أمالي المرتضى 1/ 137 و انظر خبراً عن معاملة أبي جعفر للرعية في بهجة المجالس 1/ 335.

اتفقت مع غيرها ممن ترى أن كتاب الأمان هو سبب قتله. فقد ذكر في كتابات (المقالات والفرق) الذي صنفه سعد بن عبد الله بن خلف الأشعري القمي (ت 501هـ) أن المنصور لما ضجر من كتاب الأمان كتب إلى عامله على البصرة سفيان بن معاوية أن يقتله، ولكن سفيان الذي ظفر بابن المقفع الذي أراد حمله إلى المنصور؛ فما كان منه إلا أن قتل نفسه، فقيل: شرب سماً؛ وقيل: شنق نفسه[110].

وهذا ليس بصحيح لما تبيناه من أن عيسى بن علي أراد الأخذ بالثأر لبن المقفع من سفيان؛ فانتهى هو الآخر نهاية مجهولة في سنة (142هـ / 759م).

ويخلص المرء إلى أن حسد الكتاب وحقدهم عليه كأبي أيوب المرياني؛ وكراهية بعض الولاة المقربين من الخليفة وتوعدهم له بالشر، والنكاية له عند المنصور وتعرض ابن المقفع لنقد الولاة والحكم بصورة مباشرة وغير مباشرة؛ ووقوفه إلى جانب بني علي أعمام الخليفة كل ذلك أدى إلى عدم تقبل الخليفة لابن المقفع، ومن ثم عدم الرغبة فيه، ومن ثم كراهيته التي بلغت أوجها بكتاب الأمان مما جعله يعزم على قتله.

فسبب مقتله سبب ذاتي شخصي، ثم اجتماعي سياسي في ضوء ما ذكرناه، وقبل ذلك قتله إتقانه لحرفة الكتابة.

أما تاريخ مقتله فقد اختلف فيه القدماء والمحدثون، وإن اتفقوا على أنه وقع في البصرة؛ فجعله كثير منهم بين سنتي (142هـ / 759م) وبين (145هـ /

(110) بين ابن المقفع ولافونتين16.

openkandil.com

764م)؛ ومنهم من مده إلى سنة (150هـ) أو بعدها بقليل...وكل له رأيه[111].
ولكننا نرجح أنه قتل سنة (142هـ / 759م) وهي السنة التي قتل فيها عيسى بن علي الذي رغب في الثأر له، فضلاً عن أن ابن خلكان يفيد أنه عاش ستاً وثلاثين سنة، فإذا كان مولده الذي اتفق عليه أغلب القدماء سنة (106هـ / 724م) فإن سنة (142هـ) هي الأرجح لمقتله؛ وهي السنة التي حددها الجاحظ أيضاً[112].

وأخيراً نقول لعل بيان زندقته ينكشف في الكلام على آثاره، وتبين هذه الآثار جملة من الإضاءات عن عقيدته وثقافته ومنهجه، وسلوكه الدؤوب في الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي والسياسي، وهي في الوقت نفسه توضح لنا مفهوم ابن المقفع للترجمة التي توسع فيها باعتبار نزوحه الفارسي الإنساني لا باعتباره الشعوبي، وقد عمل لذلك منذ دخوله الدواوين، وهذه الآثار هي التي تسلمنا إلى الفصل الثالث الذي يبرئ ابن المقفع من الزندقة والشعوبية.

◎ ◎ ◎

(111) انظر تاريخ الأدب في إيران 102 وراجع مصادر حاشية (1-5) مما تقدم.
(112) انظر وفيات الأعيان 2 / 152- 153 والبخلاء 368؛ وراجع (ح 6).

obeikandl.com